المجتمع العثماني في أواخر عهده ..التراث الفكري

كتبته إليزابيث أوزدالجا

راجعه تحسين أوزجان

لا تزال الدراسات حول المجتمع العثماني في أواخر عهده، في كثير من الجوانب تجذب انتباه المؤرخين. هذه الفترة ليست فقط مهمة للبحث التاريخي في العالم العثماني، ولكن أيضًا لفهم تركيا الحديثة بشكل أفضل. بل إن الدراسة يمكن أيضًا أن تمتد لتشمل العالم الإسلامي، بما في ذلك العديد من دول الشرق الأوسط ودول البلقان وشمال إفريقيا، ومناطق القوقاز. لقد ساهمت أوزدالجا وأثرت بهذا العمل القيم التراثَ الفكري عن هذه الفترة.

هذا الكتاب هو نتاج مؤتمر حمل عنوان "التراث العثماني الفكري"، أقيم في معهد الأبحاث السويدي في إسطنبول خلال الفترة من 15-17 مارس 2001. وتضمن المؤتمر مقدمة لإليزابيث أوزدالجا وعشرة مقالات لخبراء بارزين في مختلف جوانب هذا الموضوع. يتناول الكتاب فترة حدثت فيها تغيرات سياسية واجتماعية واقتصادية، وفكرية كبيرة وتحولات في المجتمع العثماني. وفي الوقت ذاته، أثر التوسع الأوروبي والتحديث في جميع أنحاء الأراضي العثمانية. واستند موقف المثقفين العثمانيين تجاه هذه التطورات إلى مكانتهم السياسية والاجتماعية، والاقتصادية. وظهرت خصائص هوياتهم الدينية أو العرقية وفقًا للطريقة التي تفاعلوا بها مع هذه التطورات.

بدءًا من التحديث العثماني، تؤكد أوزدالجا في مقدمتها، أن التحديث الذي بدأ مع إصلاحات التنظيمات فتح العنان أمام ظهور فكر عثماني جديد. وترى أن المفكرين القوميين الحداثيين حملوا أيديولوجيات، وكانوا مستقلين عن الدولة، وعن العلاقات القبلية، والدين المؤسسي. ومع ذلك، كان لهم أيضًا خصومهم، بما في ذلك الإسلاميون والعثمانيون. وعلى الرغم من تجاهل المؤرخين الأتراك، كانت تركيا الحديثة نتيجة لهذا التراث الفكري، وتؤكد أوزدالجا أن "المجتمع العثماني في أواخر عهده كان نظامًا اجتماعيًّا تنافست فيه مجموعة واسعة من الأفكار والتيارات الفكرية" وتقول إن الهدف من هذا الكتاب هو "إلقاء الضوء على المسارات التي اتبعها المثقفون الأتراك في طريقهم إلى المجتمع الحديث".

إريك يان زورخر Erik-Jan Zürcher في مقال له، يحلل الجذور الأيديولوجية للجمهورية التركية الجديدة. أيضًا تم تحليل ستة مبادئ رئيسة للكمالية في ضوء الأصول العثمانية وعلاقتها بفكر الشباب الأتراك. وفقًا لزورخر، تأثرت الكمالية إلى حد كبير بالوضعية الفرنسية. لهذا تمت مناقشة أبرز الرموز الفكرية الرئيسة في الفترة الجمهورية، مثل أحمد رضا،

ضيـاء جوك ألـب، وعبد الله جودت، كـما تم شرح أثر الوضعية على السياسة التركية في هذا الفصل.

في الفصل الثاني، ناقش شكرو هاني أوغلو Şükrü Hanioğlu تأثير المادية الفرنسية والألمانية في المثقفين العثمانيين. وحاول هاني أوغلو أن يستكشف كيف تأثر المثقفون في أواخر أيام الدولة العثمانية، مثل بشير فؤاد، وعبـد الله جـودت وبهـاء توفيـق، بالمادية ويحلـل تأثير الدين والفلسفة والفن والأدب فيهم.

وكتـب كريسـتوف نيومـان Christoph Neumann فصـلًا عن أحمد جودت باشـا باعتباره مـن الشخصيـات المهمة في فـترة التنظيـمات. لقد كان رجل دولـة، ورئيـس وزراء، ومشرعًا، ومثـلًا للتغيير الجذري للمثقفين العثمانيين خلال القرن التاسع عشر. وخلص نيومان إلى أن مفهوم جودت باشا للدولة كان له أثر كبير وهام في الثقافة السياسية في تركيا الحديثة.

وحللـت إليزابيـث فريرسـن Elizabeth Frierson مكانـة المـرأة في المجتمـع العثماني في فترة التغير والتحول. واستخدمت مجلة للمرأة حملت اسم، جريدة السـيدات الخاصـة Hanımlara Mahsus Gazete التي نشرت بين 1895–1909، لمدة أربعة عـشر عامًا. يمدنا هذا الفصـل بمعلومات حول وضع المـرأة، وأوضاعهـا الفكرية، وتطوير الأفكار النسـوية خلال تلك الفترة.

أمـا إسـماعيل قـارا İsmail Kara، كخبـير بارز بالعلـماء في أواخـر العهـد العثـماني وبدايـات الفـترة الجمهوريـة، فقـد حلـل موقـف العلـماء تجـاه الأفكار الجديـدة والتغيـيرات الجذريـة في تلـك الحقبـة. لقـد اسـتخدم العديد من المنشـورات والأمثلة التوضيحية، وحلل التحولات العامة التي وقعت من خلال نظرتهم للعـالم. وجادل بأنه في حين ظـل جزءٌ من العلماء متأثرًا وتابعًـا "للمـدارس" ولم يتغـير، فـان جزءًا آخـر منهم غـيّر مـن مفاهيمـه السياسـية الأساسـية، بـما في ذلـك الخلافة، ولعبـوا دورًا مركزيا في الصراع الأيديولوجي والسياسي.

أيضًا كان الاسـتخدام السـياسي للهوية الإسلامية أداة سياسية مهمّة وكان له دور مهمّ في عهد عبد الحميد الثاني. فقد حلل أديب خالد أفكار الوحدة الإسـلامية عـلى اعتبارها أداة للحفاظ على المسـلمين تحت سـلطة الخليفـة في وجـه الاسـتعمار الغـربي، وفرق بـين ثلاثة أشكال مختلفة من الوحدة الإسلامية: التعصب الديني، سياسـة الدولـة العثمانية، وشـكل جديد مـن التضامن للحفاظ عـلى وحدة النخـب الإسـلامية. ويهتم خالد بالشكل الأخير، كوحدة إسلامية، وهو ما ينطوي على بنية أكـبر وأكثر تعقيدًا تقوم على مسـاهمات المسـلمين غير العثمانيين من روسيا وآسيا الوسطى، والهند.

في الفصل التالي، يقوم يوهان ستراوس Johann Strauss بدراسـة اسـتقصائية للمنشـورات التـي صرحت بها وزارة التعليم العام، استنادًا إلى المعلومات في السـالنامات العثمانيـة "salname". وشـملت الدراسة منشورات باللغة التركية والعربية والفارسية، وبلغـات غـير المسـلمين مثـل اليونانيـين والأرمـن والبلغار واللغات الأوروبية بما فيها الفرنسية والألمانية والإيطاليـة، والإنجليزيـة. حلـل سـتراوس القضايـا الرئيسـة من أجل فهم طبيعة الحيـاة الثقافية في المجتمع العثماني خلال تلك الفـترة. ويقول إن أغلبية الصحافة كان مركزها إسـطنبول ويديرها غير المسلمين، وكانت متعـددة الثقافـات وكـان هـذا التنـوع مـن خصائص التراث الفكري العثماني.

أمـا أكشـن سـومل Akşin Somel في الفصـل المتعلق بمدارس المجتمع المسيحي، فتناولت التغييرات التي حدثت في المؤسسات التعليمية المسيحية خلال فترة الإصلاح العثماني. كانت المدارس المسـيحية والمدارس

التبشيرية في غاية الأهمية لتغلغل الأفكار الأوروبية ذات الفكر القومي بين الرعايا غير المسلمين في الدولة العثمانية. وأكدت سومل دور مدارس الطائفة المسيحية في إضعاف النسيج الاجتماعي المتعدد الأعراق للدولة العثمانية وتسييس الجماعات العرقية والدينية من خلال نشر القومية والأيديولوجيات الحديثة الأخرى.

وبينما حلل قارا Kara علماء العاصمة، لاحظ جاكوب سكوفجارد بيترسون Jakob Skovgaard-Peterson جانبًا آخر من العلماء. فقد بحث عن المفتين المحليين في دمشق وبيروت كزعماء دينيين إقليميين. وتمت مناقشة الوظائف الكلاسيكية للمفتين المحليين والتغييرات في وظائفهم خلال فترة التحديث.

في الفصل الأخير من الكتاب، استعرضت نتالي كلير Nathalie Clayer موظفي الخدمة المدنية الألبان في الدولة العثمانية الذين تلقوا تعليمهم في المدارس الملوكية (المدارس السياسية) Mekteb-i Mülkiye. وحللت كلير قصة هذه النخب، التي كانت تدين بالإسلام ولكن من أعراق مختلفة، خلال الحكم الحميدي فيما يتعلق بالاستقلال الوطني الألباني وتداعياته. كما حللت أيضًا الفكر العثماني، الذي انتقل إلى دول البلقان المستقلة حديثًا ولعب دورًا مهمًّا في تشكيل الحياة السياسية والفكرية في البلقان". وألحقت كلير ملحقًا يتضمن بعض الملاحظات والسير الذاتية للألبان الذين شملتهم الدراسة.

هذا الكتاب يعد مثالًا جيدًا على الاهتمام بجذور الحياة الفكرية التركية. فهو يوضح المصادر الغنية للتراث العثماني ويلفت الانتباه إلى التطور المستمر للتصورات البديلة والأصيلة للتاريخ الفكري التركي والعثماني. كما يكشف لنا أن هناك العديد من المجالات التي تحتاج إلى البحث لفهم فترة التحديث العثماني بشكل أفضل وكذلك أساسيات تركيا الحديثة.